

الرسَالة التَبُوكِيَّة

الإمَام ابن قَيّم الجَوزيَّة

الطبعة الأولى

السنة: 1406 هـ / 1986 م

تقديم: محمد جميل غازي

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين وعليه نتوكل

قال الشيخ الإمام العلم العلامة محمد بن أبي بكر، المعروف بابن قيم الجوزية رضي الله عنه و أرضاه- في كتابه الذي سيره من تبوك ثامن المحرم سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة- بعد كلام له سبق:

أحمد لله بمحامده التي هو لها أهل، والصلاة والسلام على خاتم رسله وأنبيائه: محمد صلى الله عليه وسلم.

وبعد:

فإن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه: {وتَعَاوَنُوا عَلَى البرِ والتَّقوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثم والعُدوَان واتقُوا الله إنَّ الله شَدِيد العِقَاب} [المائدة: 2].

وقد اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، فيما بينهم بعضهم بعضا، وفيما بينهم وبين ربهم، فإن كل عبد لا ينفك عن هاتين الحالتين، وهذين الواجبين: واجب بينه وبين الله، وواجب بينه وبين الخلق.

فأما ما بينه وبين الخلق: من المعاشرة والمعاونة والصحبة، فالواجب عليه فيها أن يكون اجتماعه بهم، وصحبته لهم، تعاونا على مرضاة الله وطاعته، التي هي غاية سعادة العبد وفلاحه ولا سعادة له إلا بها، وهي البر والتقوى، اللذان هما جماع الدين كله، وإذا أفرد كل واحد من الاسمين دخل في مسمى الآخر، إما تضمنا، وإما لزوما، ودخوله فيه تضمنا أظهر، لأن البر جزء مسمى التقوى، وكذلك التقوى، فإنها جزء مسمى البر. وكون أحدهما لا يدخل في الآخر عند الاقتران لا يدل على أنه لا يدخل فيه عند انفراد الآخر.

ونظير هذا: لفظ ((الإيمان والإسلام)) و((الإيمان والعمل الصالح)) و((الفقير والمسكين)) و((الفسوق والعصيان)) و((المنكر والفاحشة)) ونظائره كثيرة. وهذه قاعدة جليلة من أحاط بها زالت عنه إشكالات كثيرة، أشكلت على طوائف كثيرة من الناس.

ولنذكر من هذا مثالاً واحدا يستدل به على غيره، وهو البر والتقوى.

حقيقة البر:

فإن حقيقة البر: هو الكمال المطلوب من الشيء والمنافع التي فيه والخير، كما يدل عليه اشتقاق هذه اللفظة وتصاريفها في الكلام.

ومنه ((البُر)) بالضم لمنافعه وخيره بالإضافة إلى سائر الحبوب. ومنه رجل بار، وبر، وكرام بررة، والأبرار.

فالبر: كلمة لجميع أنواع الخير والكمال والمطلوب من العبد. وفى مقابلته الإثم. وفى حديث النواس بن سمعان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: ((جئت تسأل عن البر والإثم)).

فالإثم: كلمة جامعة للشرور والعيوب التي يذم العبد عليها.

فيدخل في مسمى البر: الإيمان وأجزاؤه الظاهرة والباطنة، ولا ريب أن التقوى جزء هذا المعنى، وأكثر ما يعبر عن بر القلب، وهو وجود طعم الإيمان

فيه وحلاوته، وما يلزم ذلك من طمأنينته وسلامته، وانشراحه وقوته، وفرحه بالإيمان. فإن للإيمان فرحة وحلاوة ولذة في القلب، فمن لم يجدها فهو فاقد الإيمان أو ناقصه.

وهو من القسم الذي قال الله عز وجل فيهم: {قَالَت الأَعرَاب آمنّا، قُل لم تُؤمِنُوا، ولَكِن قُولُوا أَسْلَمنا، ولمَّا يَدخل الإِيمَان في قُلُوبِكم} [الحجرات: 14]. فهؤلاء- على أصح القولين- مسلمون غير منافقين وليسوا بمؤمنين إذ لم يدخل الإيمان في قلوبهم فيباشرها حقيقة.

وقد جمع الله خصال البر في قوله تعالى: {لَيسَ البرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُم قِبَل المَشرِقِ والمَغرِب- إلى قوله- وُأُولَئكَ هُمُ المُتَّقُون} [البقرة: 177].

فأخبر سبحانه أن البر هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهذه هي أصول الإيمان الخمس التي لا قوام للإيمان إلا بها.

وأنه الشرائع الظاهرة: من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنفقات الواجبة.

وأنه الأعمال القلبية التي هي حقائقه، من الصبر والوفاء بالعهد فتناولت هذه الخصال جميع أقسام الدين، حقائقه وشرائعه والأعمال المتعلقة بالجوارح والقلب، وأصول الإيمان الخمس. ثم أخبر سبحانه عن هذه أنها هي خصال التقوى بعينها فقال: {أُولَئكَ الذِينَ صَدَقُوا وُأُولَئكَ هُمُ المُتَّقُون} [البقرة: 177].

حقيقة التقوى:

وأما ((التقوى)) فحقيقتها العمل بطاعة الله إيمانا واحتسابا، أمراً ونهيا، فيفعل ما أمر الله به إيمانا بالأمر وتصديقا بوعده، ويترك ما نهى الله عنه إيمانا بالنهي وخوفا من وعيده.

كما قال طلق بن حبيب: ((إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوى، قالوا: وما التقوى ؟ قال: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله)).

وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى.

فإن كان عمل لا بد له من مبدأ وغاية، فلا يكون العمل طاعة وقربة حتى يكون مصدره عن الإيمان، فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض، لا العادة ولا الهوى ولا طلب المحمده والجاه وغير ذلك، بل لا بد أن يكون مبدؤه محض الإيمان، وغايته ثواب الله وابتغاء مرضاته وهو الاحتساب.

ولهذا كثيرا ما يقرن بين هذين الأصلين في مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((من صام رمضان إيمانا واحتسابا)) و ((ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً)) ونظائره.

فقوله ((على نور من الله)) إشارة إلى الأصل الأول: وهو الإيمان الذي هو مصدر العمل والسبب الباعث عليه.

وقوله ((ترجو ثواب الله)) إشارة إلى الأصل الثاني: وهو الاحتساب، وهو الغاية التي لأجلها توقع العمل، ولها يقصد به. ولا ريب أن هذا اسم لجميع أصول الإيمان وفروعه، وأن البر داخل في هذا المسمى.

وأما عند اقتران أحدهما بالآخر، كقوله تعالى: {وتَعَاوَنُوا عَلَى البرِ والتَّقوَى} [المائدة: 2]، فالفرق بينهما فرق بين السبب المقصود لغيره والغاية المقصودة لنفسها، فإن البر مطلوب لذاته، إذ هو كمال العبد وصلاحه الذي لا صلاح له بدونه كما تقدم.

وأما التقوى فهي الطريق الموصل إلى البر والوسيلة إليه، ولفظها يدل على هذا. فإنها فعلى، ومن وقى يقي، وكان أصلها ((وقوى))، فقلبوا الواو تاء، كما قالوا تراث من الوراثة، وتجاه من الوجه، وتخمة من الوخمة، ونظائرها. فلفظها دال على أنها من الوقاية، فإن المتقي قد جعل بينه وبين النار وقاية، فالوقاية من باب دفع الضرر، فالتقوى والبر كالعافية والصحة.

ضرر عدم العلم بحدود ما أنزل الله:

وهذا باب شريف ينتفع به انتفاعاً عظيماً في فهم ألفاظ القرآن ودلالته، ومعرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، فإنه هو العلم النافع.

وقد ذم الله تعالى في كتابه من ليس له علم بحدود ما أنزل الله على رسوله. فإن عدم العلم بذلك مستلزم مفسدتين عظيمتين.

إحداهما: أن يدخل في مسمى اللفظ ما ليس منه، فيحكم له بحكم المراد من اللفظ، فيساوي بين ما فرق الله بينهما.

والثانية: أن يخرج من مسمى بعض أفراده الداخلة تحته، فيسلب عنه حكمه، فيفرق بين ما جمع الله بينهما.

و الذكى الفطن يتفطن لإفراد هذه القاعدة وأمثالها، فيرى أن كثيرا من الاختلاف أو أكثره إنما ينشأ من هذا الموضع.

وتفصيل هذا لا يفي به كتاب ضخم.

ومن هذا لفظ. ((الخمر))، فإنه اسم شامل لكل مسكر، فلا يجوز إخراج بعض المسكرات منه وينفي عنها حكمه.

وكذلك لفظ: ((الميسر)) وإخراج بعض أنواع القمار منه.

وكذلك لفظ: ((النكاح)) وإدخال ما ليس بنكاح في مسماه.

وكذلك لفظ: ((الربا)) وإخراج بعض أنواعه منه، وإدخال ما ليس بربا فيه.

وكذلك لفظ: ((الظلم والعدل)) و ((المعروف والمنكر)) ونظائره أكثر من أن تحصى.

والمقصود أن المقصود من اجتماعهم وتعاشرهم: هو التعاون على البر والتقوى، فيعين كل واحد صاحبه على ذلك علماً وعملا.

فإن العبد وحده لا يستقل بعلم ذلك ولا بالقدرة عليه، فاقتضت حكمة الرب سبحانه أن جعل النوع الإنساني قائماً بعضه ببعضه، معينا بعضه لبعضه.

ثم قال تعالى: {وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثم والعُدوَان} [المائدة: 2].

و(الإثم والعدوان) في جانب النهى نظير: (البر والتقوى) في جانب الأمر.

الفرق بين الإثم والعدوان:

والفرق بين الإثم والعدوان، كالفرق ما بين محرم الجنس ومحرم القدر.

فالإثم: ما كان حراما لجنسه.

والعدوان: ما حرم لزيادة في قدره وتعدي ما أباح الله منه.

فالزنا والخمر والسرقة ونحوها: إثم.

ونكاح الخامسة واستيفاء المجني عليه أكثر من حقه ونحوه: عدوان.

فالعدوان: هو تعدي حدود الله التي قال فيها: {تِلكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الظَالِمُونَ} [البقرة: 229].

وقال في موضع آخر: {تِلكَ حُدُودُ الله فَلا تَقْرَبُوهَا} [البقرة: 187]، فنهى عن تعديها في آية وعن قربانها في آية.

وهذا لأن حدوده سبحانه وتعالى هي النهايات الفاصلة بين الحلال والحرام، ونهاية الشيء تارة تدخل فيه فتكون منه، وتارة لا تكون داخلة فيه فتكون لها حكم المقابلة. فالاعتبار الأول نهي عن تعديها، وبالاعتبار الثاني نهي عن قربانها.

فصل

كيف يتم للعبد أداء حق الله وحق المخلوقين؟

فهذا حكم العبد فيما بينه وبين الناس: وهو أن تكون مخالطته لهم تعاونا على البر والتقوى، علماً وعملا.

(يتبع...)

@ وأما حاله فيما بينه وبين الله تعالى: فهو إيثار طاعته وتجنب معصيته، وهو قوله تعالى: {واتَّقُوا الله} [المائدة: 2].

فأرشدت الآية إلى ذكر واجب العبد بينه وبين الخلق، وواجبه بينه وبين الحق.

ولا يتم له أداء الواجب الأول إلا بعزل نفسه من الوسط، والقيام بذلك لمحض النصيحة والإحسان ورعاية الأمر، ولا يتم له أداء الواجب الثاني إلا بعزل الخلق من البين، والقيام له بالله إخلاصا ومحبة وعبودية.

فينبغي التفطن لهذه الدقيقة، التي كل خلل يدخل على العبد في أداء هذين الأمرين الواجبين إنما هو من عدم مراعاتها علما وعملا. وهذا معنى قول الشيخ عبد القادر قدس الله روحه: ((كن مع الحق بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس، ومن لم يكن كذلك لم يزل في تخبيط،ولم يزل أمره فرطا)).

والمقصود بهذه المقدمة ما بعدها.

فصل

في الهجرة إلى الله ورسوله

لما فَصَلَ عير السفر، واستوطن المسافر دار الغربة، وحيل بينه وبين مألوفاته وعوائده المتعلقة بالوطن ولوازمه: أحدث له ذلك نظرا فأجال فكره في أهم ما يقطع به منازل السفر إلى الله وينفق فيه بقية عمره، فأرشده من بيده إلى أن أهم شئ يقصده إنما هو الهجرة إلى الله ورسوله، فإنها فرض عين

على كل أحد في كل وقت، وأنه لا انفكاك لأحد من وجوبها، وهى مطلوب الله ومراده من العباد.

إذ الهجرة هجرتان:

هجرة بالجسم من بلد إلى بلد، وهذه أحكامها معلومة، وليس المراد الكلام فيها.

والهجرة الثانية: الهجرة بالقلب إلى الله ورسوله، وهذا هي المقصودة هنا. وهذه الهجرة هي الهجرة الحقيقية وهى الأصل، وهجرة الجسد تابعة لها.

مبدأ الهجرة ومنتهاها:

وهى هجرة تتضمن (من) و(إلى)؛ فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلى محبته.

ومن عبودية غيره إلى عبوديته.

ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه، إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه.

ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له إلى دعائه، وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له.وهذا بعينه معنى الفرار إليه قال تعالى: {فَفِرُّوا إِلَى الله} [الذاريات: 50].

والتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه.

الفرار إلى الله:

وتحت (من) و(إلى)؛ في هذا سر عظيم من أسرار التوحيد.

فإن الفرار إليه سبحانه يتضمن إفراده بالطلب والعبودية ولوازمها من المحبة والخشية والإنابة والتوكل وسائر منازل العبودية، فهو متضمن لتوحيد الإلهية التي اتفقت عليها دعوة الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

الفرار من الله:

وأما الفرار منه إليه فهو متضمن لتوحيد الربوبية وإثبات القدر، وأن كل ما في الكون من المكروه والمحذور الذي يفر منه العبد، فإنما أوجبته مشيئة الله وحده، فإنه ما شاء كان ووجب وجوده بمشيئته، وما لم يشأ لم يكن، وامتنع وجوده لعدم مشيئته. فإذا فر العبد إلى الله فإنما يفر من شئ إلى شئ وجد بمشيئة الله وقدره فهو في الحقيقة فار من الله إليه.

ومن تصور هذا حق تصوره فهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم: ((أعوذ بك منك)).

وقوله: ((لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك)). فإنه ليس في الوجود شئ يفر منه ويستعاذ منه، ويلتجأ منه، إلى هو من الله خلقا وإبداعا.

فالفار والمستعيذ: فار مما أوجده قدر الله ومشيئته وخلقه إلى ما تقتضيه رحمته وبره ولطفه وإحسانه، ففي الحقيقة هو هارب من الله إليه، ومستعيذ بالله منه.

وتصور هذين الأمرين يوجب للعبد انقطاع تعلق قلبه عن غيره بالكلية خوفا ورجاء ومحبة، فإنه إذا علم أن الذي يفر منه ويستعيذ منه إنما هو بمشيئة الله وقدرته وخلقه لم يبق في قلبه خوف من غير خالقه وموجده، فتضمن ذلك إفراد الله وحده بالخوف والحب والرجاء، ولو كان فراره مما لم يكن بمشيئة الله ولا قدرته، لكان ذلك موجبا لخوفه منه، مثل ما يفر من مخلوق آخر أقدر منه، فإنه في حال فراره من الأول خائف منه حذرا أن لا يكون الثاني يفيده منه، بخلاف ما إذا كان الذي يفر إليه هو الذي قضى وقدر وشاء ما يفر منه، فإنه لا يبقى في القلب التفات إلى غيره.

فتفطن إلى هذا السر العجيب في قوله: ((أعوذ بك منك)) و((لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك)) فإن الناس قد ذكروا في هذا أقوالا وقل من تعرض منهم لهذه النكتة التي هي لب الكلام ومقصوده. وبالله التوفيق.

فتأمل كيف عاد الأمر كله إلى الفرار من الله إليه، و هو معنى الهجرة إلى الله تعالى ؟

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((المهاجر من هجر ما نهى الله عنه)) ولهذا يقرن الله سبحانه بين الإيمان والهجرة في غير موضع لتلازمها واقتضاء أحدهما للآخر.

أصل الهجرة:

والمقصود: أن الهجرة إلى الله تتضمن هجران ما يكرهه وإتيان ما يحبه و يرضاه، وأصلها الحب والبغض، فإن المهاجر من شئ إلى شئ لابد أن يكون ما هجر إليه أحب مما هاجر منه، فيؤثر أحب الأمرين إليه على الآخر. وإذا كان نفس العبد وهواه وشيطانه إنما يدعونه إلى غير مرضاة ربه، وداعي الإيمان يدعوه إلى مرضاة ربه فعليه في كل وقت أن يهاجر إلى الله، ولا ينفك في هجرته إلى الممات.

فصل

الهجرة بين القوة والضعف

وهذه الهجرة تقوى وتضعف بحسب داعي المحبة في قلب العبد، فإن كان الداعي أقوى كانت هذه الهجرة أقوى وأتم وأكمل.

وإذا ضعف الداعي ضعفت الهجرة حتى لا يكاد يشعر بها علما، ولا يتحرك لها إرادة.

الهجرة العارضة:

الذي يقضى منه العجب: أن المرء يوسع الكلام ويفرع المسائل في الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام. وفى الهجرة التي انقطعت بالفتح، وهذه هجرة عارضة ربما لا تتعلق به في العمر أصلا.

الهجرة الدائمة:

وأما هذه الهجرة التي واجبة على مدى الأنفاس، فإنه لا يحصل فيها علما ولا إرداة وما ذلك إلا للإعراض عما خلق له.

والاشتغال بما لا ينجيه وحده عما لا ينجيه غيره. وهذا حال من غشيت بصيرته وضعفت معرفته بمراتب العلوم والأعمال. والله المستعان وبالله التوفيق، لا إله غيره ولا رب سواه.

فصل

في الهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

و أما الهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلم لم يبق منه سوى اسمه، ومنهج لم تترك بنيات الطريق سوى رسمه، ومحجة سفت عليها السوافي فطمست رسومها، وغارت عليها الأعادي فغورت مناهلها وعيونها، فسالكها غريب بين العباد، فريد بين كل حي وناد، ببعد على قرب المكان، وحيد على كثرة الجيران، مستوحش مما به يستأنسون، مستأنس مما به يستوحشون، مقيم إذا ظعنوا، ظاعن إذا قطنوا منفرد في طريق طلبه،لا يقر قراره حتى يظفر بأربه. فهو الكائن معهم بجسده، البائن منهم بمقصده، نامت في طلب الهدى أعينهم، وما ليل مطيته بنائم. وقعدوا عن الهجرة النبوية، وهو في طلبها مشمر قائم، يعيبونه بمخالفة آرائهم، ويزرون عليه إزراءه على جهالاتهم وأهوائهم، قد رجموا فيه الظنون، وأحدقوا فيه العيون، وتربصوا به ريب المنون: {فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ} [التوبة: 52].

{قَالَ رَبِّ احْكُم بِالحَقِ وَرَبُّنَا المُستَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [الأنبياء: 112].

نحن وإياكم نموت، فمـــا أفلح عند الحساب من ندما

والمقصود: أن هذه الهجرة النبوية شأنها شديد. وطريقها على غير المعتاد بعيد.

بعيد على كسلان أو ذى ملالة أما على المشتاق فهو قريب

ولعمر الله، ما هي إلا نور يتلألأ، ولكن أنت ظلامه، وبدر أضاء مشارق الأرض ومغاربها، ولكن أنت غيمة و قتامة. ومنهل عذب صافي، وأنت كدره ومبتدأ لخير عظيم، ولكن ليس عندك خبره.

فاسمع الآن شأن هذه الهجرة والدلالة عليها، وحاسب ما بينك وبين الله، هل أنت من المهاجرين لها، أو المهاجرين إليها ؟

تعريف الهجرة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم:

فحد هذه الهجرة: سفر الفكر في كل مسألة من مسائل الإيمان، ونازل من منازل القلوب، وحادثة من حوادث الأحكام إلى معدن الهدى، ومنبع النور الملتقى من فم الصادق المصدوق الذي {وَمَا يَنْطقُ عَنِ الهَوى * إنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: 3-4].

فكل مسألة طلعت عليها الشمس رسالته، وإلا فاقذف بها في بحر الظلمات، و كل شاهد عدله هذا المزكي وإلا فعده من أهل الريب والتهمات، فهذا حد هذه الهجرة.

فما للمقيم في مدينة طبعه وعوائده، القاطن في دار مرباه ومولده، القائل: إنا على طريقة آبائنا سالكون، و إنا بحبلهم مستمسكون، و إنا على آثارهم مقتدون و لهذه الهجرة التي كلَّت عليهم، واستند في طريقه نجاحه وفلاحه إليهم، معتذرا بأن رأيهم خير من رأيه لنفسه، وأن ظنونهم وآرائهم أوثق من ظنه وحدسه.

ولو فتشت عن مصدر مقصود هذه الكلمة لوجدتها صادرة عن الإخلاد إلى أرض البطالة، متولدة بين الكسل وزوجه الملالة.

والمقصود: أن هذه الهجرة فرض على كل مسلم، وهى مقتضى: ((شهادة أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم)).

كما أن الهجرة الأولى مقتضى: ((شهادة أن لا إله إلا الله)). وعن هاتين الهجرتين يسأل كل عبد يوم القيامة، وفى البرزخ، ويطالب بها في الدنيا ودار البرزخ ودار القرار.

قال قتادة: ((كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون ؟ وما ذا أجبتهم المرسلين ؟)).

و هاتان الكلمتان هما مضمون الشهادتين . وقد قال تعالى : {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتىَّ يُحَكِمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَينَهُم ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِم حَرَجاً مِمَا قَضَيتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيما} [النساء : 65]، فأقسم سبحانه بأجل مقسم به- وهو نفسه عز وجل- على أن لا يثبت لهم الإيمان، ولا يكونون من أهله، حتى يحكموا رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع موارد النزاع في جميع أبواب الدين.

فإن لفظة ((ما)) من صيغ العموم، فإنها موصلة تقتضي نفي الإيمان أو يوجد تحكيمه في جميع ما شجر بينهم.

ولم يقتصر على هذا حتى ضم إليه انشراح صدورهم بحكمه، حيث لا يجدون في أنفسهم حرجا- وهو الضيق والحصر- من حكمه، بل يقبلوا حكمه بالانشراح: ويقابلوه بالتسليم لا أنهم يأخذونه على إغماض، ويشربونه على قذى فإن هذا مناف للإيمان، بل لا بد أن يكون أخذه بقبول ورضا وانشراح صدر.

ومتى أراد العبد أن يعلم هذا فلينظر في حاله، ويطالعه في قلبه عند ورود حكمه على خلاف هواه وغرضه، أو على خلاف ما قلد فيه أسلافه من

المسائل الكبار وما دونها {بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَو أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} [القيامة: 14-15].

فسبحان الله ! كم من حزازة في نفوس كثير من الناس من كثير من النصوص وبودهم أن لو لم ترد ؟ وكم من حرارة في أكبادهم منها ؟ وكم من شجى في حلوقهم منها ومن موردها ؟ ستبدو لهم تلك السرائر بالذي يسوء، ويخزي يوم تبلى السرائر.

ثم لم يقتصر سبحانه على ذلك حتى ضم إليه قوله تعالى: {ويُسَلِّمُوا تَسْلِيما} [النساء: 65]، فذكر الفعل مؤكدا بمصدره القائم مقام ذكره مرتين، وهو الخضوع له والانقياد لما حكم به طوعا ورضا، وتسليما لا قهرا ولا مصابرة، كما يسلم المقهور لمن قهره كرها، بل تسليم عبد مطيع لمولاه وسيده الذي هو أحب شئ إليه، يعلم أن سعادته وفلاحه في تسليمه إليه، ويعلم بأنه أولى به من نفسه، وأبر به منها وأرحم به منها وأنصح له منها وأعلم بمصالحة منها وأقدر على تخليصها.

فمتى علم العبد هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم استسلم له، وسلم إليه وانقادت له كل علة في قلبه، ورأى أن لا سعادة له إلا بهذا التسليم والانقياد.

وليس هذا مما يحصل معناه بالعبارة، بل هو أمر انشق القلب واستقر في سويدائه لا تفي العبارة بمعناه ولا مطمع في حصوله بالدعوى والأماني.

وكل يدَّعى وصلاً لليلى   وليلى لا تُقرُّ لهم بِذاكَ

وفرق بين علم الحب وحال الحب. فكثيرا ما يشتبه على العبد علم الشيء بحاله ووجوده، وفرق بين المريض العارف بالصحة والاعتدال،وهو مثخن بالمرض، وبين الصحيح السليم، وإن لم يحسن وصف الصحة والعبارة عنها. وكذلك فرق بين وصف الخرف والعلم به وبين حاله ووجوده.

ما في الآية من تأكيد اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم:

وتأمل تأكيده سبحانه لهذا المعنى المذكور في الآية بوجوه عديدة من التأكيد:

أولها: تصديرها بتضمن المقسم عليه للنفي وهو قوله: {لا يُؤمِنُون} وهذا منهج معروف في كلام العرب، إذا أقسموا على شئ منفي صدروا جملة القسم بأداة نفي مثل هذه الآية.

ومثل ما في قول الصديق لعمر رضى الله عنه ((لاها الله إذا لا يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله فيعطيك سلبه)).

وقول الشاعر:

فلا وأبيك أبنت العامرى لا يدعى القوم أنى أفر

وقال الآخر:

فلا والله لا يُلقى لمـا بي ولا لما بهم أبدا دواءُ

وهذا في كلامهم أكثر من أن يذكر.

وتأمل جمل القسم التي في القرآن المصدرة بحرف النفي كيف تجد المقسم عليه منفيا ومتضمنا للنفي ؟ ولا يحرم هذا قوله تعالى: {فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُوم * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرآنٌ كَرِيمٌ} [الواقعة: 75-77].

فإنه لما كان المقصود بهذا القسم نفي ما قاله الكفار في القرآن: من أنه شعر، أو كهانة، أو أساطير الأولين، صدر القول بأداة النفي. ثم أثبت ما قالوه، فتضمنت الآية أن ليس الأمر كما يزعمون، ولكنه قرآن كريم.

ولهذا صرح بالأمرين: النفي والإثبات في مثل قوله تعالى: {فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنسِ * وَالليْلِ إذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَولُ رَسُولِ كَرِيمٍ * ذِى قُوْةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِين * ومَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * وَلَقَد رَآهُ بِالأُفقِ المبِينِ * وَمَا هُو عَلى الغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوِلِ شَيطَانٍ رَجِيمٍ} [التكوير: 15-25].

وكذلك قوله: {لا أُقْسِمُ بِيْومِ القِيَامَةِ- إلى قوله - بَنَانِه} [القيامة: 1-4].

والمقصود: أن افتتاح هذا القسم بأداة النفي يقتضي تقوية المقسم عليه، وتأكيده وشدة انتفائه.

وثانيها: تأكيده بنفس القسم.

وثالثها: تأكيده بالمقسم به وهو إقسامه بنفسه لا بشيء من مخلوقاته، وهو سبحانه يقسم بنفسه تارة وبمخلوقاته تارة.

ورابعها: تأكيده بانتفاء الحرج، وهو وجود التسليم.

وخامسها: تأكيد الفعل بالمصدر، وما هذا التأكيد إلا لشدة الحاجة إلى هذا الأمر العظيم، وإنه مما يعتني به ويقرر في نفوس العباد بما هو أبلغ من أنواع التقرير.

كيف يكون حب الرسول صلى الله عليه وسلم:

وقال تعالى: {النَبِيُّ أَولىَ بالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِم} [الأحزاب: 6] وهو دليل على أن من لم يكن الرسول أولى به من نفسه فليس من المؤمنين، وهذه الأولوية تتضمن أمورا:

منها: أن يكون أحب إلى العبد من نفسه، لأن الأولوية أصلها الحب، ونفس العبد أحب له من غيره، ومع هذا يجب أن يكون الرسول أولى به منها، وأحب إليه منها، فبذلك يحصل له اسم الإيمان.

(يتبع...)

@ويلزم من هذه الأولوية والمحبة كمال الانقياد والطاعة والرضا والتسليم، وسائر لوازم المحبة، من الرضا بحكمه والتسليم لأمره وإيثاره على ما سواه.

ومنها: أن لا يكون للعبد حكم على نفسه أصلا، بل الحكم على نفسه للرسول صلى الله عليه وسلم يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده أو الوالد على ولده، فليس في نفسه تصرف قط إلا ما تصرف فيه الرسول الذي هو أولى به منها.

فيا عجباً كيف تحصل هذه الأولوية لعبد قد عزل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم عن منصب التحكيم، ورضي بحكم غيره واطمأن إليه أعظم من اطمئنانه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزعم أن الهدى لا يتلقى من مشكاته، وإنما يتلقى من دلالة العقول، وأن الذي جاء به لا يفيد اليقين، إلى غير ذلك من الأقوال التي تتضمن الإعراض عنه وعما جاء به، والحوالة في العلم النافع إلى غيره، ذلك هو الضلال البعيد. ولا سبيل إلى ثبوت هذه الأولوية إلا بعزل كل ما سواه، وتوليته في كل شئ وعرض ما قاله كل أحد سواه على ما جاء به، فإن شهد بالصحة قبله، وإن شهد له بالبطلان رده. وإن لم تتبين شهادته له بصحة ولا ببطلان، جعله بمنزلة أحاديث أهل الكتاب ووقفه حتى يتبين أي الأمرين أولى به ؟.

فمن سلك هذه الطريقة استقام له سفر الهجرة واستقام له علمه وعمله، وأقبلت وجوه الخلق إليه من كله جهة.

أدعياء المحبة:

ومن العجب أن يدعى حصول هذه الأولوية والمحبة التامة من كان سعيه واجتهاده ونصبه في الاشتغال بأقوال غيره وتقريرها، والغضب والمحبة لها والرضا بها و التحاكم إليها وعرض ما قاله الرسول عليها، فإن رافقها قبله، وإن خالفها التمس وجوه الحيل، وبالغ رده ليا وإعراضا.

كما قال تعالى: {وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً} [النساء: 135].

وقد اشتملت هذه الآية على أسرار عظيمة يجب التنبيه على بعضها لشدة الحاجة إليها.

قال تعالى: {يَأَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إنْ يَكُنْ غَنِيا أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلَى بهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً} [النساء: 135].

فأمر سبحانه بالقيام بالقسط وهو العدل في هذه الآية، وهذا أمر بالقيام به في حق كل أحد عدوا كان أو وليا وأحق ما قام له العبد بقصد الأقوال والآراء والمذاهب، إذا هي متعلقة بأمر الله وخبره.

فالقيام فيها بالهوى والمعصية مضاد لأمر الله، مناف لما بعث به رسوله.

القيام بالقسط وظيفة خلفاء الرسل:

والقيام فيها بالقسط وظيفة خلفاء الرسول في أمته وأمنائه بين أتباعه، ولا يستحق اسم الأمانة إلا من قام فيها بالعدل المحض نصيحة لله، ولكتابه، ولرسوله، ولعباده.

وأولئك هم الوارثون حقا.

لا من يجعل أصحابه ونحلته ومذهبه معيارا على الحق وميزانا له، يعادي من خالفه ويوالى من وافقه بمجرد موافقته ومخالفته، فأين هذا من القيام بالقسط الذي فرضه الله على كل أحد ؟ وهو في هذا الباب أعظم فرضا، وأكبر وجوبا ؟.

معنى القيام لله بالقسط والشهادة:

ثم قال: ((شهداء لله)) الشاهد هو المخبر، فإن أخبر بحق فهو شاهد عدل مقبول، وإن أخبر بباطل فهو شاهد زور.

وأمر تعالى أن يكون شهيدا له مع القيام بالقسط وهذا يتضمن أن تكون الشهادة بالقسط، وأن تكون لله لا لغيره.

وقال في الآية الأخرى: {كُونُوا قَوَّامِينَ لله شُهَدَاءَ بِالقِسْطِ} [المائدة: 8] فتضمنت الآيتان أمورا أربعة:

أحدها: القيام بالقسط.

الثاني: أن يكون لله.

الثالث: الشهادة بالقسط.

الرابع: أن تكون لله.

واختصت آية النساء بالقسط والشهادة لله وآية المائدة بالقيام لله والشهادة بالقسط لسر عجيب من أسرار القرآن، ليس هذا موضع ذكره.

القيام لله بالقسط والشهادة فيه اختبار لإيمان العبد:

ثم قال تعالى: {وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ} [النساء: 135]، فأمر سبحانه أن يقام بالقسط ويشهد على كل أحد ولو كان أحب الناس إلى العبد فيقوم بالقسط على نفسه ووالديه اللذين هما أصله، وأقاربه الذين هم أخص به، والصديق من سائر الناس، فإن كان ما في العبد من محبة لنفسه ولوالديه وأقاربه يمنعه من القيام عليهم بالحق، ولا سيما إذا كان الحق لمن يبغضه ويعاديه قبلهم، فإنه لا يقوم به في هذا الحال إلا من كان الله ورسوله أحب إليه من كل ما سواهما.

وهذا يمتحن به العبد إيمانه فيعرف منزلة الإيمان من قلبه ومحله منه، وحكم هذا عدل العبد في أعدائه ومن يجفوه، فإنه لا ينبغي أن يحمله بغضه لهم

أن يحيف عليهم، كما لا ينبغي أن يحمله حبه لنفسه ووالديه وأقاربه على أن يترك القيام عليهم بالقسط، فلا يدخله ذلك البغض في باطل ولا يقصر به هذا الحب عن الحق.

كما قال بعض السلف: ((العادل هو الذي إذا غضب لم يدخله غضبه في باطل، وإذا رضى لم يخرجه رضاه عن الحق)).

اشتملت الآيتان على هذين الحكمين: وهما القيام بالقسط والشهادة به على الأولياء والأعداء.

ثم قال تعالى: {إنْ يَكُنْ غَنِيا أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلَى بهِمَا} [النساء: 135] منكم، هو ربهما ومولاهما وهما عبيده، كما أنكم عبيده فلا تحابوا غنيا لغناه، ولا فقيرا لفقره، فإن الله أولى بهما منكم.

وقد يقال فيه معنى آخر أحسن من هذا، وهو أنهم ربما خافوا من القيام بالقسط وأداء الشهادة على الغنى والفقير.أما الغنى فخوفا على ماله، وأما الفقير فلإعدامه وأنه لا شئ له، فتتساهل النفوس في القيام عليه بالحق. فقيل لهم والله أولى بالغنى والفقير منكم، أعلم بهذا وأرحم بهذا، فلا تتركوا أداء الحق والشهادة على غنى ولا فقير.

ثم قال تعالى: {فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا} [النساء: 135].

نهاهم عن اتباع الهوى الحامل على ترك العدل.

وقوله تعالى: {أَنْ تَعْدِلُوا} [النساء: 135] منصوب الموضع لأنه مفعول لأجله، وتقديره عند البصريين كراهية أن تعدلوا، أو حذر أن تعدلوا، فيكون اتباعكم للهوى كراهية العدل أو فرارا منه. وعلى قول الكوفيين التقدير أن لا تعدلوا، وقول البصريين أحسن وأظهر.

أسباب كتمان الحق: الليّ والإعراض:

ثم قال تعالى: {وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كانَ بَما تَعْملُونَ خَبِيراً} [النساء: 135].

ذكر سبحانه السببين الموجبين لكتمان الحق، محذرا منهما ومتوعدا عليهما.

أحدهما: اللي.

والآخر: الإعراض.

فإن الحق إذا ظهرت حجته ولم يجد من يروم دفعها طريقا إلى دفعها، أعرض عنها وأمسك عن ذكرها فكان شيطاناً أخرس، وتارة يلويها ويحرفها.

الليّ مثال الفتل وهو التحريف.

وهو نوعان: لي في اللفظ، ولى في المعنى.

فاللي في اللفظ أن يلفظ بها على وجه لا يستلزم الحق، إما بزيادة لفظه أو نقصانها أو إبدالها بغيرها.

ولى في كيفية أدائها وإيهام السامع لفظا وإرادة غيره، كما كان اليهود يلوون ألسنتهم بالسلام على النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا أحد نوعى اللي.

والنوع الثاني منه: لي المعنى وهو تحريفه وتأويل اللفظ على خلاف مراد التكلم، وبجهالة ما لم يرده أو يسقط منه لبعض المراد به، ونحو هذا من لي المعاني، فقال تعالى: {وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كانَ بَما تَعْملُونَ خَبِيراً} [النساء: 135].

ولما كان الشاهد مطالباً بأداء الشهادة على وجهها فلا يكتمها ولا يغيرها كان الإعراض نظير الكتمان.

و اللى نظير تغييرها وتبديلها.

فتأمل ما تحت هذه الآية من كنوز العلم.

والمقصود: أن الواجب الذي لا يتم الإيمان، بل لا يحصل مسمى الإيمان إلا له، مقابلة النصوص بالتلقى والقبول ولا إظهار لها ودعوة الخلق إليها، ولا تقابل بالاعتراض تارة و باللى أخرى.

وقال تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولهُ أَمراً أَن يَكُونَ لَهُم الخِيَرَةُ مِن أَمْرِهِم} [الأحزاب: 36] فدل هذا على أنه إذا ثبت لله ورسوله في كل مسألة من المسائل حكم طلبي أو خبري، فإنه ليس لأحد أن يتخير لنفسه غير ذلك الحكم فيذهب إليه، ون ذلك ليس لمؤمن ولا مؤمنة أصلا، فدل على أن ذلك مناف للإيمان.

إجماع الصحابة والتابعين على وجوب اتباع السنة عند ثبوتها:

وقد حكى الشافعي رضى الله عنه إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم، على أن: ((من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد))، ولم يستغرب أحد من أئمة الإسلام في صحة ما قاله الشافعي رضى الله عنه.

فإن الحجة الواجب اتباعها على الخلق كافة إنما هو قول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وأما أقوال غيره فغايتها أن تكون سائغة الاتباع فضلا عن أن يعارض بها النصوص وتقدم عليها، عياذا بالله من الخذلان.

الهداية في طاعة الرسول:

وقال تعالى: {وأَطِيعُوا الله وأَطِيعُوا الرَسُولَ- إلى قوله- البَلاغُ المبِينُ} [المائدة: 92].

فأخبر سبحانه أن الهداية في طاعة الرسول لا في غيرها، فإنه معلق بالشرط فينتفي بانتفائه وليس هذا من باب دلالة المفهوم، كما يغلط فيه كثير من الناس ويظن أنه محتاج في تقريره الدلالة منه لا تقرير كون المفهوم حجة.

بل هذا من الأحكام التي ترتبت على شروط وعلقت فلا وجود لها بدون شروطها، إذ ما علق على الشرط فهو عدم عند عدمه، وإلا لم يكن شرطا له.

إذا ثبت هذا: فالآية نص على انتفاء الهداية عند عدم طاعته.

وفى إعادة الفعل في قوله تعالى: {وأَطِيعُوا الله وأَطِيعُوا الرَسُولَ} [المائدة: 92]، دون الاكتفاء بالفعل الأول، سر لطيف وفائدة جليلة، سنذكرها عن قريب إن شاء الله تعالى.

وقوله تعالى: {فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيهِ مَا حُمِّل} [النور: 54].الفعل للمخاطبين. وأصله فإن تتولوا، فحذفت إحدى التاءين تخفيفا.

والمعنى: أنه قد حمل أداء الرسالة وتبليغها، وحملتم طاعته والانقياد له والتسليم.

كما ذكره البخاري في صحيحه عن الزهري قال: ((من الله البيان وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم)).

فإن تركتم أنتم ما حملتموه من الإيمان والطاعة فعليكم لا عليه.

فإنه لم يحمل إيمانكم وإنما حمل تبليغكم.

وإنما حمل أداء الرسالة إليكم.

{وإن تُطِيعُوه تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَسُولِ إِلا البَلاغُ المبِينُ} [النور: 54] ليس عليه هداهم وتوفيقهم.

وقال تعالى: {يَأيُهَا الذِين آمَنُوا أَطِيعُوا الله وأَطِيعُوا الرَسُولَ- إلى قوله- وأَحْسَنُ تَأْوِيلا} [النساء: 59].

النداء بالإيمان ومعنى قول الله: (يا أيها الذين آمنوا):

فأمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله.

وافتتح الآية بالنداء باسم الإيمان المشعر، بأن المطلوب منهم من موجبات الاسم الذي نودوا به وخوطبوا به، كما يقال: يا من أنعم الله عليه وأغناه من فضله، أحسن كما أحسن الله إليك: ويا أيها العالم علم الناس ما ينفعهم، ويا أيها الحكم احكم بالحق ونظائره.

ولهذا كثيرا ما يقع الخطاب في القرآن بالشرائع كقوله تعالى:

{يأيها الذين آمنوا كُتِبَ عَلَيْكُم الصيامُ} [البقرة: 183].

{يأيها الذين آمنوا إذا نُودِىَ لِلصَّلاةِ} [الجمعة: 9].

{يأيها الذين آمنوا أَوْفُوا بِالعُقُودِ} [المائدة: 1].

ففى هذا إشارة إلى أنكم إن كنتم مؤمنين فالإيمان يقتضي منكم كذا وكذا، فإنه من موجبات الإيمان وتمامه.

طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم من طاعة الله:

ثم قال تعالى: {أَطِيعُوا الله وأَطِيعُوا الرَسُولَ وأُولِى الأَمْر مِنْكُم} [النساء: 59].

فقرن بين طاعة الله والرسول وطاعة أولى الأمر، وسلط عليهما عاملا واحدا. وقد كان ربما يسبق إلى الوهم أن الأمر يقتضي عكس هذا، فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله. ولكن الواقع هنا في الآية المناسب.

وتحته سر لطيف وهو دلالته على أن ما يأمر به رسوله يجب طاعته فيه، وإن لم يكن مأمورا به بعينه في القرآن طاعة الرسول مفردة ومقرونة.

فلا يتوهم متوهم أن ما يأمر به الرسول إن لم يكن في القرآن، وإلا في القرآن، وإلا فلا تجب طاعته فيه.

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يأتيه الأمر من أمرى فيقول بيننا وبينكم كتاب الله تعالى، ما وجدنا فيه من شئ اتبعناه ألا و إنى أوتيت الكتاب ومثله معه)).

طاعة أولى الأمر:

أما أولوا الأمر فلا تجب طاعة أحدهم إلا إذا اندرجت تحت طاعة الرسول، لا طاعة مفردة مستقلة، كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((على المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية الله تعالى. فإذا أمر بمعصية الله تعالى فلا سمع ولا طاعة)).

فتأمل كيف اقتضت إعادة هذا المعنى قوله تعالى: {فَرُدُّوهُ إِلى الله والرَسُولِ} [النساء: 59]، ولم يقل: (وإلى الرسول) فإن الرد إلى القرآن رد إلى الله والرسول، فما حكم به الله تعالى هو بعينه حكم رسوله، وما يحكم به الرسول صلى الله عليه وسلم هو بعينه حكم الله.

فإذا رددتم إلى الله ما تنازعتم فيه يعنى كتابة فقد رددتموه إلى رسوله. وكذلك إذا رددتموه إلى رسوله، فقد رددتموه إلى الله، وهذا من أسرار القرآن.

من هم أولو الأمر؟:

وقد اختلقت الرواية عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى في أولى الأمر، وعنه فيهم رحمه الله تعالى روايتان: إحداهما: أنهم العلماء.

والثانية: أنهم الأمراء.

والقولان: ثابتان عن الصحابة في تفسير الآية، والصحيح أنها متناولة للصنفين جميعا، فإن العلماء والأمراء ولاة الأمر الذي بعث الله به رسوله، فإن العلماء ولاته حفظا وبيانا وذبا عنه وردا على من الحد فيه وزاغ عنه.

وقد وكلهم الله بذلك فقال تعالى: {فَإِن يَكْفُر بِهَا هَؤلاءِ فَقَدْ وَكَّلنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ} [الأنعام: 89]، فيالها من وكالة أوجبت طاعتهم والانتهاء إلى أمرهم وكون الناس تبعا لهم.

والأمراء ولاته قياما وعناية وجهادا وإلزاما للناس به، وأخذهم على يد من خرج عنه.

وهذان الصنفان هما الناس وسائر النوع الإنساني تبع لهما ورعية.

وجوب رد موارد النزاع إلى الله ورسوله:

ثم قال تعالى: {فَإِن تَنَازَعْتُم فِي شَيءٍ فَرُدُّوهُ إِلى الله والرَسُولِ إنْ كُنتُم تُؤمِنُونَ بِالله واليَوْمِ الآخِرِ} [النساء: 59].

وهذا دليل قاطع على أنه يجب رد موارد النزاع في كل ما تنازع فيه الناس من الدين كله إلى الله ورسوله لا إلى أحد غير الله ورسوله، فمن أحال الرد على غيرهما فقد ضاد أمر الله ومن دعا عند النزاع إلى حكم غير الله ورسوله فقد دعا بدعوى الجاهلية، فلا يدخل العبد في الإيمان حتى يرد كل ما تنازع فيه المتنازعون إلى الله ورسوله.

(يتبع...)

@ ولهذا قال الله تعالى: {إنْ كُنتُم تُؤمِنُونَ بِالله واليَوْمِ الآخِرِ} [النساء: 59]، وهذا مما ذكرنا آنفا أنه شرط ينتفي المشروط بانتفائه، فدل على أن من حكم غير الله ورسوله في موارد مقتضى النزاع كان خارجا من مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر، وحسبك بهذه الآية العاصمة القاصمة بيانا وشفاء، فإنها قاصمة لظهور المخالفين لها، عاصمة للمتمسكين بها الممتثلين ما أمرت له.

قال الله تعالى: {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَي عَن بَيِّنَةٍ وإنَّ الله لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأنفال: 43].

وقد اتفق السلف والخلف على أن الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول هو الرد إليه في حياته، والرد إلى سنته بعد وفاته.

سعادة الدارين في رد النزاع إلى الله ورسوله:

ثم قال تعالى: {ذَلِكَ خَير وَأَحْسَنُ تَأوِيلا} [النساء: 59]، أي هذا الذي أمرتكم به من طاعتي وطاعة رسولي وأولياء الأمر، ورد ما تنازعتم فيه إليَّ وإلى رسولي خير لكم في معاشكم ومعادكم، وهو سعادتكم في الدارين، فهو خير لكم وأحسن عاقبة.

فدل هذا على أن طاعة الله ورسوله وتحكيم الله ورسوله، هو سبب السعادة عاجلا وآجلا. ومن تدبر العالم والشرور الواقعة فيه علم أن كل شر في العالم سببه مخالفة الرسول والخروج عن طاعته، وكل خير في العالم فإنه يسبب طاعة الرسول.

وكذلك شرور الآخرة وآلامها وعذابها إنما هو من موجبات مخالفة الرسول ومقتضياتها، فعاد شر الدنيا والآخرة إلى مخالفة الرسول وما يترتب عليه، فلو أن الناس أطاعوا الرسول حق طاعته لم يكن في الأرض شر قط، وهذا كما أنه معلوم في الشرور العامة والمصائب الواقعة في الأرض، فكذلك هو في الشر والألم والغم الذي يصيب العبد في نفسه، فإنما هو بسبب مخالفة الرسول، ولأن طاعته هي الحصن الذي من دخله كان من الآمنين، والكهف الذي من لجأ إليه كان من الناجين.فعلم أن شرور الدنيا والآخرة إنما هو الجهل بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والخروج عنه.

وهذا برهان على أنه لا نجاة للعبد ولا سعادة إلا بالاجتهاد في معرفة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم علما والقيام به عملا.

كمال السعادة:

وكمال هذه السعادة بأمرين آخرين

أحدهما: دعوة الخلق إليه.

والثاني: صبره واجتهاده على تلك الدعوة.

فانحصر الكمال الإنساني على هذه المراتب الأربعة:

أحدهما: العلم بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

والثانية: العمل به.

والثالثة: نشره في الناس ودعوتهم إليه.

والرابعة: صبره وجهاده في أدائه وتنفيذه.

ومن تطلعت همته إلى معرفة ما كان عليه الصحابة رضى الله عنهم، وأراد اتباعهم فهذه طريقتهم حقا:

فإن شئت وصل القوم فاسلك سبيلهم فقد وضحت للســـالكين عيانا

وقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: {قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِن اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَّي رَبِي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} [سبأ: 50].

فهذا نص صريح في أن هدى الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يحصل بالوحي، فيا عجبا كيف يحصل الهدى لغيره من الآراء والعقول المختلفة والأقوال المضطربة ؟ ولكن من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا.

فأى ضلال أعظم من ضلال من زعم أن الهداية لا تحصل بالوحي، ثم يحيل فيها على عقل فلان ورأى فلان ؟ وقول زيد وعمرو ؟ ولقد عظمت نعمة الله على عبد عافاه من هذه البلية العظمى والمصيبة الكبرى، والحمد لله رب العالمين.

من لا يتبع الوحي فقد اتبع الباطل:

وقال تعالى: {المص * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىَ لِلْمُؤْمِنِينَ * اتّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مّن رّبّكُمْ وَلاَ تَتّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مّا تَذَكّرُونَ} [الأعراف: 1-3]، فأمر الله سبحانه باتباع ما أنزل على رسوله ونهى عن اتباع غيره. فما هو إلا اتباع المنزل، واتبع أولياء من دونه. فإنه لم يجعل بينهما واسطة. فكل من لا يتبع الوحي فإنما يتبع الباطل واتبع أولياء من دون الله، وهذا بحمد الله ظاهر لا خفاء به.

حال الخلة التي خلاف طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في يوم القيامة:

وقال تعالى: {وَيَوْمَ يَعَضّ الظّالِمُ عَلَىَ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتّخَذْتُ مَعَ الرّسُولِ سَبِيلاً * يَوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً * لّقَدْ أَضَلّنِي عَنِ الذّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً} [الفرقان: 27-29].

فكل من اتخذ غير الرسول، يترك لأقواله وآرائه ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه قائل هذه المقالة لا محالة. ولهذا، هذا الخليل كنى عنه باسم فلان. إذا لكل متبع أولياء من دون الله فلان وفلان.

فهذا حال الخليلين المتخالين على خلاف طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ومآل تلك الخلة إلى العداوة واللعنة.

كما قال تعالى: {الأخِلاّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّ إِلاّ الْمُتّقِينَ} [الزخرف: 67].

وقد ذكر حال هؤلاء الأتباع وحال من تبعوهم في غير موضع من كتابه كقوله تعالى: {يَوْمَ تُقَلّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَا أَطَعْنَا اللّهَ وَأَطَعْنَا الرّسُولاَ * وَقَالُواْ رَبّنَا إِنّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلّونَا السّبِيلاْ * رَبّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً} [الأحزاب: 66-68].

تمنى القوم طاعة الله ورسوله حين لا ينفعهم ذلك، واعتذروا بأنهم أطاعوا كبراءهم ورؤساءهم، واعترفوا بأنهم لا عذر لهم في ذلك، وأنهم أطاعوا السادات والكبراء عصوا الرسول، وآلت تلك الطاعة والموالاة إلى قولهم {رَبَّنَآ آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً} [الأحزاب: 68]. وفى بعض هذا عبرة للعاقل وموعظة شافية، وبالله التوفيق.

وقال تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمّنِ افْتَرَىَ عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مّنَ الْكِتَابِ حَتّىَ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفّوْنَهُمْ قَالُوَاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قَالُواْ ضَلّواْ عَنّا وَشَهِدُواْ عَلَىَ أَنْفُسِهِمْ أَنّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ * قَالَ ادْخُلُواْ فِيَ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ مّن الْجِنّ وَالإِنْسِ فِي النّارِ كُلّمَا دَخَلَتْ أُمّةٌ لّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتّىَ إِذَا ادّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لاُولاَهُمْ رَبّنَا هَؤُلاءِ أَضَلّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مّنَ النّارِ قَالَ لِكُلّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاّ تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ} [الأعراف: 37-39].

فليتدبر العاقل هذه الآيات، وما اشتملت عليه من العبر.

الصنفان المبطلان:

وقوله تعالى: {افْتَرَىَ عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذّبَ بِآيَاتِهِ} [الأعراف: 37] ذكر الصنفين المبطلين.

أحدهما: منشئ الباطل والفرية وواضعها و داعى الناس إليها.

والثاني: مكذب بالحق.

فالأول: كفره بالافتراء وإنشاء الباطل.

والثاني: كفره بجحود الحق.

ولهذا قال تعالى: {الّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ} [النحل: 88]، فلما كفروا وصدوا عباده عن سبيله عذبهم عذابين: عذابا بكفرهم وعذابا بصدهم عن سبيله.

وحيث يذكر الكفر المجرد لا يعدد العذاب.

كقوله تعالى: {[الّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ]} [فاطر: 7].

وقوله تعالى: {أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مّنَ الْكِتَابِ} [الأعراف: 37] يعنى ينالهم ما كتب لهم في الدنيا من الحياة والرزق وغير ذلك.

{حَتّىَ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفّوْنَهُمْ قَالُوَاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قَالُواْ ضَلّواْ عَنّا}[الأعراف: 37] زالوا وفارقوا وبطلت تلك الدعوة.

{وَشَهِدُواْ عَلَىَ أَنْفُسِهِمْ أَنّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ * قَالَ ادْخُلُواْ فِيَ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ مّن الْجِنّ وَالإِنْسِ فِي النّارِ} [الأعراف: 37-38]، ادخلوا في جملة هذه الأمم.

{كُلّمَا دَخَلَتْ أُمّةٌ لّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتّىَ إِذَا ادّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ} [الأعراف: 38]، كل أمة متأخرة لأسلافها.

{رَبّنَا هَؤُلاءِ أَضَلّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مّنَ النّار} [الأعراف: 38] ضاعفه عليهم بما أضلونا وصدونا عن طاعة رسلك، قال تعالى: {لِكُلّ ضِعْفٌ} [الأعراف: 38] من الأتباع والمتبوعين بحسب ضلاله وكفره {وَلَكِن لاّ تَعْلَمُونَ} [الأعراف: 38]، لا تعلم كل طائفة بما فيه أختها من العذاب المضاعف.
{وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ} [الأعراف: 39] فإنكم جئتم بعدنا فأرسلت فيكم الرسل وبينوا لكم الحق وحذروكم من ضلالنا ونهوكم عن اتباعنا وتقليدنا، فأبيتم إلا اتباعا وتقليدا، وترك الحق الذي أتتكم به الرسل. فأي فضل كان لكم علينا، وقد ضللتم كما ضللنا، وتركتم الحق كما تركنا، فضللتم أنتم بنا كما ضللنا نحن بقوم آخرين. فأي فضل كان لكم علينا ؟

{فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ} [الأعراف: 39] فلله ما أشفاها من موعظة وما أبلغها من نصيحة، لو صادفت من القلوب حياة. فإن هذه الآية وأمثالها، مما يذكر قلوب السائرين إلى الله، وأما أهل البطالة فليس عندهم من ذلك خبر.

فصل

معركة الأتباع والمتبوعين

فهذا حكم الأتباع والمتبوعين المشتركين في الضلالة

وأما الأتباع المخالفون لمتبوعيهم، العادلون عن طريقتهم الذين يزعمون أنهم لهم تبع وليس متبعين لطريقتهم، فهم المذكورون في قوله تعالى: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [البقرة: 166-167].

فهؤلاء المتبوعون كانوا على هدى، وأتباعهم ادعوا أنهم كانوا على طريقتهم ومنهاجهم، وهم مخالفون لهم سالكون غير طريقتهم، يزعمون أنهم يحبونهم، وأن محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم، فيتبرءون منهم يوم القيامة، فإنهم اتخذوهم أولياء من دون الله وظنوا أن هذا الاتخاذ ينفعهم.

وهذا حال كل من اتخذ من دون الله ورسوله وليجة وأولياء، يوالى لهم ويعادى لهم، ويرضى لهم ويغضب لهم، فإن أعماله كلها باطلة، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها وشدة تعبه فيها ونصبه، إذ لم يجرد موالاته ومعاداته، ومحبته وبغضه، وانتصاره وإيثاره لله ورسوله، فأبطل الله عز وجل ذلك العمل كله وقطع تلك الأسباب. فينقطع يوم القيامة كل وصلة ووسيلة ومودة، وموالاة كانت لغير الله تعالى، ولا يبقى إلا السبب الواصل بين العبد وربه، وهو حظه من الهجرة إليه وإلى رسوله، وتجريد عبادته له وحده ولوازمها من الحب والبغض، والعطاء والمنع، والموالاة والمعاداة والتقريب والإبعاد،

وتجريده متابعة رسوله وترك أقوال غيره، وترك ما خالف ما جاء به، والإعراض عنه وعدم الاعتناء به، وتجريد متابعته تجريدا محضا بريئا من شوائب الالتفات إلى غيره، فضلا عن الشركة بينه وبين غيره، فضلا عن تقديم قول غيره عليه.

فهذا هو السبب الذي لا ينقطع بصاحبه، وهذه هي النسبة التي بين العبد وبين ربه، وهى نسبة العبودية المحضة، وهى آخيته التي يحول ما يحول، ثم إليها مرجعه.

نَقِّل فؤادكَ حيثُ شئت من الهوى ما الحبُ إلا للحبيبِ الأول

كم منزلٍ في الأرض يألفـه الفتى وحنينهُ أبـداً لأولِ مـنزل

وهذه هي النسبة التي تنفع العبد، فلا ينفعه غيرها في الدور الثلاثة: أعنى دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، فلا قوام له، ولا عيش ولا نعيم، ولا فلاح إلا بهذه النسبة. وهى السبب الواصل بين العبد وبين الله، ولقد أحسن القائل:

إذا تقطعَ حبلُ الوصلِ بينهم فَلِلمُحبين حبلٌ غير منقطعِ

وإن تصدعَ شملُ القومِ بينهم فللمحبينَ شمل غير منصدع

والمقصود أن الله سبحانه يقطع يوم القيامة الأسباب والعلق والوصلات التي كانت بين الخلق في الدنيا كلها، ولا يبقى إلا السبب والوصلة بين العبد وبين الله فقط، وهو سبب العبودية المحضة التي لا وجود لها ولا تحقيق بتجريد متابعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، إذ هذه العبودية إنما جاءت على ألسنتهم، وما عرفت إلا بهم، ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم. وقد قال تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَىَ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مّنثُوراً} [الفرقان: 23].

فهذه هي أعماله التي كانت في الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم، ولغير وجهه، يجعلها الله هباءا منثورا. ولا ينتفع منها صاحبها بشيء أصلا، وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة، أن يرى سعيه كله ضائعا لم ينتفع

منه بشيء، وهو أحوج ما كان العامل إلى عمله، وقد سعد أهل السعي النافع بسعيهم.

فصل

الأتباع السعداء

فهذا حكم أتباع الأشقياء، فأما أتباع السعداء فنوعان:

أتباع لهم حكم الاستقلال وهم الذين قال الله عز وجل فيهم:
{وَالسّابِقُونَ الأوّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأنْصَارِ وَالّذِينَ اتّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ} [التوبة: 100].

فهؤلاء هم السعداء الذين ثبت لهم رضا الله عنهم، وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل من تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة. ولا يختص ذلك بالقرن الذين رأوهم فقط، وإنما خص التابعين بمن رأوا الصحابة تخصيصا عرفيا ليتميزوا به عمن بعدهم فقيل: التابعون مطلقا لذلك القرن فقط، وإلا فكل من سلك سبيلهم فهو من التابعين بإحسان، وهو ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه.

الإحسان في التبعية:

وقيد سبحانه هذه التبعية بأنها تبعية بإحسان ليست مطلقة فتحصل بمجرد النية والاتباع في شئ والمخالفة في غيره، ولكن تبعية مصاحبة الإحسان.

وأن الباء هاهنا للمصاحبة.

والإحسان والمتابعة شرط في حصول رضاء الله عنهم وجناته.

وقد قال تعالى: {هُوَ الّذِي بَعَثَ فِي الاُمّيّينَ رَسُولاً مّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكّيهِمْ وَيُعَلّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مّبِينٍ *

وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الجمعة: 2-4].

فالأولون: هم الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبوه.

والآخرون: هم الذين لم يلحقوهم، وهم كل من بعدهم على مناهجهم إلى يوم القيامة، فيكون التأخر وعدم اللحاق في الفضل والرتبة، بل هم دونهم فيكون عدم اللحاق في الرتبة، والقولان كالمتلازمين، فإن من بعدهم لا يلحقون بهم لا في الفضل ولا في الزمان، فهؤلاء الصنفان هم السعداء.

وأما من لم يقبل هدى الله الذي بعث به رسوله ولم يرفع به رأسا فهو من الصنف الثالث وهم: {مَثَلُ الّذِينَ حُمّلُواْ التّوْرَاةَ ثُمّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً} [الجمعة: 5].

أقسام الخلائق بالنسبة لقبول دعوته صلى الله عليه وسلم.

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أقسام الخلائق بالنسبة إلى دعوته وما بعث به من الهدى في قوله صلى الله عليه وسلم: ((مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكانت منها أجادب أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا، وأصاب طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في الدين فنفعه ما بعثني الله به، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)).

فشبه صلى الله عليه وسلم العم الذي جاء به بالغيث لأن كلا منهما سبب الحياة، فالغيث سبب حياة الأبدان، والعلم سبب حياة القلوب.

وشبه القلوب بالأدوية كما في قوله تعالى: {أَنَزَلَ مِنَ السّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} [الرعد: 17].

وكما أن الأرضين ثلاثة بالنسبة إلى قبول الغيث.

إحداها: أرض زكية قابلة للشراب والنبات، فإذا أصابها الغيث ارتوت، ومنه يثمر النبت من كل زوج بهيج.

فذلك مثل القلب الزكى الذكي، فهو يقبل العلم بذكائه فيثمر فيه وجوه الحكم ودين الحق بذكائه، فهو قابل للعلم، مثمر لموجبه وفقهه وأسرار معادنه.

والثانية: أرض صلبة قابلة لثبوت ما فيها وحفظه، فهذه تنفع الناس لورودها والسقي منها و الازدارع.

وهو مثل القلب الحافظ للعلم الذي يحفظه كما سمعه، فلا تصرف فيه، ولا استنبط، بل للحفظ المجرد فهو يؤدى كما سمع، وهو من القسم الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((فرب حامل فقه إلى من هو أفقه، ورب حامل فقه غير فقيه)).

فالأول: كمثل الغنى التاجر الخبير بوجوه المكاسب والتجارات فهو يكسب بماله ما شاء.

والثاني: مثل الغنى الذي لا خبرة له بوجوه الربح والمكسب ولكنه حافظ لما لا يحسن التصرف والتقلب فيه.والأرض الثالثة: أرض قاع، وهو المستوى الذي لا يقبل النبات، ولا يمسك ماء، فلو أصابها من المطر ما أصابها لم تنتفع منه بشيء.

فهذا مثل القلب الذي لا يقبل العلم والفقه والدراية، وإنما هو بمنزلة الأرض البوار التي لا تنبت ولا تحفظ، وهو مثل الفقير الذي لا مال له، ولا يحسن أن يمسك مالا.

فالأول: عالم معلم، وداع إلى الله على بصيرة، فهذا من ورثة الأنبياء.

والثاني: حافظ مؤد لما سمعه، فهذا يحمل لغيره ما يتجر به المحمول إليه ويستثمر.

والثالث: لا هذا ولا هذا، فهو الذي لم يقبل هدى الله، ولم يرفع به رأسا.

فاستوعب هذا الحديث أقسام الخلق في الدعوة النبوية ومنازلهم منها قسمان: قسم سعيد، وقسم شقي.

(يتبع...)

@ فصل

أطفال المؤمنين يلحقون بآبائهم في الجنة

وأما النوع الثاني من الأتباع فهم المؤمنين من ذريتهم الذين لم يثبت لهم حكم التكليف في دار الدنيا، وإنما هم مع آبائهم تبع لهم.

وقال الله تعالى فيهم: {وَالّذِينَ آمَنُواْ وَاتّبَعَتْهُمْ ذُرّيّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرّيّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مّنْ عَمَلِهِم مّن شَيْءٍ كُلّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهَينٌ} [الطور: 21].

أخبر سبحانه أنه ألحق الدية بآبائهم في الجنة، كما أتبعهم إياهم في الإيمان.

ولما كان الذرية لا عمل لهم يستحقون به تلك الدرجات قال تعالى: {وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مّنْ عَمَلِهِم مّن شَيْءٍ} [الطور: 21].

والضمير عائد إلى الذين آمنوا.

أي وما نقصناهم من عملهم بل رفعنا ذريتهم إلى درجتهم مع توفيتهم أجور أعمالهم، فليست منزلتهم منزلة من لم يكن له عمل، بل وفيناهم أجورهم، فألحقنا بهم ذريتهم فوق ما يستحقون من أعمالهم.

ثم لما كان هذا الإلحاق في الثواب والدرجات فضلا من الله، فربما وقع في الوهم أن إلحاق الذرية أيضا حاصل لهم في حكم العدل، فلما اكتسبوا

سيئات أوجبت عقوبة، كان كل عالم رهينا بكسبه لا يتعلق بغيره شئ. فالإلحاق المذكور إنما هو في الفضل والثواب لا في العدل والعقاب، وهذا نوع من أسرار القرآن وكنوزه، التي يختص الله بفهمها من شاء.

فقد تضمنت هذه الآية أقسام الخلائق كلهم: أشقيائهم وسعدائهم.

السعداء المتبوعين والأتباع.

والأشقياء المتبوعين والأتباع.

فعلى العاقل الناصح لنفسه أن ينظر في أي الأقسام هو، ولا يغتر بالعادة ويخلد إلى البطالة، فإن كان من قسم سعيد انتقل إلى ما هو فوقه وبذل جهده، والله ولى التوفيق والنجاح. وإن كان من قسم شقي انتقل منه إلى القسم السعيد في زمن الإمكان قبل أن يقول: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا.

فصل

كيف يكون سفر الهجرة إلى الله والرسول؟

والمقصود بهذا أن من أعظم التعاون على البر والتقوى والتعاون على سفر الهجرة إلى الله والرسول باليد واللسان والقلب والمساعدة والنصيحة تعليما و إراشادا ومودة.

ومن كان هكذا مع عباد الله فكل خير إليه أسرع، وأقبل الله إليه بقلوب عباده، وفتح على قلبه أبواب العلم، ويسره لليسرى.

ومن كان بالضد فبالضد.

زاد المسافر:

فإن قلت: قد أشرت إلى سفر عظيم وأمر جسيم، فما زاد هذا السفر وما طريقه وما مركبه ؟

قلت: زاده العلم الموروث من خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم ولا زاد له سواه، فمن لم يحصل هذا الزاد فلا يخرج من بيته وليقعد مع الخالفين.

فرفقاء المتخلف البطالون أكثر من أن يحصوا، فله أسوة بهم، ولن ينفعه هذا التأسي يوم الحسرة شيئا، كما قال تعالى: {وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ} [الزخرف: 39]، فقطع الله سبحانه انتفاعهم بتأسي بعضهم ببعض في العذاب، فإن مصائب الدنيا إذا عمت صارت مسلاة، وتأسى بعض المصابين ببعض، كما قالت الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولـي على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثلَ أخي ولكن أسلى النفس عنه بالتأسي

فهذا الروح الحاصل من التأسي معدوم بين المشتركين في العذاب يوم القيامة.

طريق السفر:

وأما طريقه: فهو بذل الجهد واستفراغ الوسع، فلا ينال بالمنى، ولن يدرك بالهوينا، و إنما هو كما قيل:

فخض غمرات الموت واسمُ إلى العلا لكى تدرك العز الرفيع الدائم

فلا خير في نفس تخاف مـن الردى ولا همة تصبو إلى لوم لائمٍ

ولا سبيل إلى ركوب هذا الظهر إلا بأمرين:

أحدهما: أن لا يصبو في الحق إلى لوم لائم، فإن اللوم يصيب الفارس فيصرعه عن فرسه، ويجعله صريعا على الأرض.

والثاني: أن تهون عليه نفسه في الله، فيقدم حينئذ ولا يخاف الأهوال، فمتى خافت النفس تأخرت وأحجمت وأخلدت إلى الأرض، ولا يتم له هذان الأمران إلا بالصبر، فمن صبر قليلا صارت تلك الأهوال ريحا رخاء في حقه تحمله بنفسها إلى مطلوبه، فبينما هو يخاف منها، إذ صارت أعظم أعوانه وخدمه، وهذا أمر لا يعرفه إلا من دخل فيه.

مركب المسافر:

وأما مركبه فصدق اللجأ إلى الله والانقطاع إليه بكليته، وتحقيق الافتقار إليه بكل وجه، والضراعة إليه وصدق التوكل والاستعانة به، و الانطراح بين يديه أنطراح المسلوم المكسور الفارغ الذي لا شئ عنده، فهو يتطلع إلى قيمه ووليه أن يجده ويلم شعثه، ويمده من فضله ويستره، فهذا الذي يرجى له أن يتولى الله هدايته، وأن يكشف له لما خفي على غيره من طريق هذه الهجرة ومنازلها.

فصل

التدبر والتفكر في آلاء الله

ورأس الأمر وعموده في ذلك، إنما هو دوام التفكر وتدبر آيات الله، حيث تستولي على الفكر وتشغل القلب. فإذا صارت معاني القرآن مكان الخواطر من قلبه وجلس على كرسيه، وصار له التصرف، وصار هو الأمير المطاع أمره، فحينئذ يستقيم له سيره، ويتضح له الطريق، وتراه ساكنا وهو يبارى الريح {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرّ مَرّ السّحَابِ صُنْعَ اللّهِ الّذِيَ أَتْقَنَ كُلّ شَيْءٍ إِنّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ} [النمل: 88].

فصل

أفلا يتدبرون القرآن ؟

فإن قلت: إنك قد أشرت إلى مقام عظيم فافتح لي بابه، واكشف لي حجابه، وكيف تدبر القرآن وتفهمه والإشراف على عجائبه وكنوزه ؟ وهذه تفاسير الأئمة بأيدينا فهل في البيان غير ما ذكروه ؟

قلت: سأضرب لك أمثالا تحتذي عليها وتجعلها إماما لك في هذا المقصد.

قال الله تعالى: {هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين} إلى قوله {الحكيم العليم} [الذاريات: 24-30].

فعهدي بك إذا قرأت هذه الآية وتطلعت إلى معناها وتدبرتها. فإنما تطلع منها على أن الملائكة أتوا إبراهيم في صورة الأضياف يأكلون ويشربون وبشروه بغلام عليم، وإنما امرأته عجبت من ذلك فاخبرتها الملائكة أن الله قال ذلك ولم يجاوز تدبرك غير ذلك.

فاسمع الآن بعض ما في هذه الآيات من أنواع الأسرار.

وكم قد تضمنت من الثناء على إبراهيم ؟

وكيف جمعت الضيافة وحقوقها ؟

وما تضمنت من الرد على أهل الباطل من الفلاسفة والمعطلة ؟

وكيف تضمنت علما عظيما من أعلام النبوة ؟

وكيف تضمنت جميع صفات الكمال، التي ردها إلى العلم والحكمة ؟

وكيف أشارت إلى دليل إمكان المعاد بألطف إشارة وأوضحها، ثم أفصحت وقوعه ؟

وكيف تضمنت الإخبار عن عدل الرب وانتقامه من الأمم المكذبة ؟

وتضمنت ذكر الإسلام والإيمان والفرق بينهما.

وتضمنت بقاء آيات الرب الدالة على توحيده وصدق رسله، وعلى اليوم الآخر.

وتضمنت أنه لا ينتفع بهذا كله إلا من في قلبه خوف من عذاب الآخرة، وهم المؤمنون بها.

وأما من لا يخاف الآخرة ولا يؤمن بها، فلا ينتفع بتلك الآيات.

فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملة:

قال الله تعالى: {هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين} [الذاريات: 24].

افتتح سبحانه القصة بصيغة موضوعة للاستفهام، وليس المراد بها حقيقة الاستفهام، ولهذا قال بعض الناس: إن (هل) في مثل هذا الموضع بمعنى (قد) التي تقتضي التحقيق. ولكن في ورود الكلام في مثل هذا بصيغة الاستفهام سر لطيف، ومعنى بديع، فإن المتكلم إذا أراد أن يخبر المخاطب بأمر عجيب ينبغي الاعتناء به، وإحضار الذهن له، صدر له الكلام بأداة الاستفهام، لتنبيه سمعه وذهنه للمخبر به، فتارة يصدره بألا، وتارة يصدره بهل، فقول: هل علمت ما كان من كيت وكيت ؟ إما مذكرا به، وإما واعظا له مخوفا، وإما منبها على عظمة ما يخبر به، وإما مقررا له.

فقوله تعالى: {هل أتاك حديث موسى} [طه: 9] و{هل أتاك نبأ الخصم} [ص: 21] و{هل أتاك حديث الغاشية } [الغاشية: 1] و{هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين}[الذاريات: 24]، متضمن لتعظيم هذه القصص والتنبيه على تدبرها ومعرفة ما تضمنته.

ففيه أمر آخر.

وهو التنبيه على أن إتيان هذا إليك علم من أعلام النبوة، فإنه من الغيب الذي لا تعلمه أنت ولا قومك. فهل أتاك من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا ؟ أم لم يأتك إلا من قبلنا ؟

فانظر ظهور هذا الكلام بصيغة الاستفهام، وتأمل عظم موقعه من جميع موارده يشهد أنه من الفصاحة في ذروتها العليا.

وقوله {ضيف إبراهيم المكرمين} [الذاريات: 24].

متضمن لثنائه على خليله إبراهيم.

فإن في ((المكرمين)) قولين.

أحدهما: إكرام إبراهيم لهم ففيه مدح إبراهيم بإكرام الضيف.والثاني: أنهم مكرمون عند الله كقوله تعالى: {بل عباد مكرمون }[الأنبياء: 26]وهو متضمن أيضا لتعظيم خليله ومدحه، إذ جعل ملائكته المكرمين أضيافا له، فعلى كلا التقديرين فيه مدح لإبراهيم.

وقوله {فقالوا سلاما قال سلام} [الذاريات: 25] متضمن بمدح آخر لإبراهيم حيث رد عليهم السلام أحسن مما حيوه به، فإن تحيتهم باسم منصوب متضمن لجملة فعلية، تقديره: سلمنا عليك سلاما. وتحية إبراهيم لهم باسم مرفوع متضمن لجملة اسمية، تقديره: سلام دائم أو ثابت أو مستقر عليكم، ولا ريب أن الجملة الاسمية تقتضي الثبوت واللزوم، والفعلية تقتضي التجدد والحدوث، فكانت تحية إبراهيم أكمل وأحسن.

ثم قال: {قوم منكرون} [الذاريات: 25] وفى هذا من حسن مخاطبة الضيف والتذمم منه وجهان في المدح.

أحدهما: أنه حذف المبتدأ. والتقدير: أنتم قوم منكرون، فتذمم منهم ولم يواجههم بهذا الخطاب لما فيه من بعض الاستيحاش.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يواجه أحدا بما يكرهه بل يقول: ((ما بال أقوام يقولون كذا ويفعلون كذا)).

(والثاني) قوله: {قوم منكرون} فحذف فاعل الإنكار وهو الذي كان أنكرهم، كما قال في موضع آخر: {نكرهم} [هود: 70] ولا ريب أن قوله: {منكرون} ألطف من أن يقول أنكرتم.

آداب الضيافة وإكرام الضيف:

وقوله {فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين، فقربه إليهم قال ألا تأكلون} [الذاريات: 26، 27] متضمن وجوها من المدح وآداب الضيافة وإكرام الضيف.

منها قوله {فراغ إلى أهله }والروغان الذهاب بسرعة واختفاء، وهو يتضمن المبادرة إلى إكرام الضيف، والاختفاء يتضمن ترك تخجيله وألا يعرض للحياء، وهذا بخلاف من يتثاقل و يتبارد على ضيفه ثم يبرز بمرأى منه ويحل صرة النفقة ويزن ما يأخذ، ويتناول الإناء بمرأى منه و نحو ذلك، مما يتضمن تخجيل الضيف وحياءه، فلفظه {راغ}تنفى هذين الأمرين. وفى قوله تعالى {إلى أهله}مدح آخر لما فيه من الإشعار أن كرامة الضيف معدة حاصلة عند أهله، وأنه لا يحتاج أن يستقرض من جيرانه، ولا أن يذهب إلى غير أهله، إذ قرى الضيف حاصل عندهم.

وقوله {فجاء بعجل سمين}[الذاريات:26] يتضمن ثلاثة أنواع من المدح.

أحدها: خدمة ضيفه بنفسه، فإنه لم يرسل به، وإنما جاء به بنفسه.

الثاني: أنه جاءهم بحيوان تام لم يأتهم ببعضه، ليتخيروا من أطيب لحمه ما شاءوا.

الثالث: أنه سمين ليس بمهزول، وهذا من نفائس الأموال ولد البقر السمين فإنهم يعجبون به، فمن كرمه هان عليه ذبحه وإحضاره.

وقوله{إليهم}متضمن المدح وآدابا أخرى وهو إحضار الطعام إلى بين يدي الضيف، بخلاف من يهيئ الطعام في موضع ثم يقيم ضيفه فيورده عليه.

وقوله {ألا تأكلون}فيه مدح وآداب أخرى فإنه عرض عليهم الأكل بقوله {ألا تأكلون}وهذه صيغة عرض مؤذنة بالتلطف، بخلاف من يقول: ضعوا أيديكم في الطعام، كلوا، تقدموا، ونحو هذا.

وقوله {فأوجس منهم خيفة }لأنه لما رآهم لا يأكلون من طعامه أضمر منهم خوفا أن يكون معهم شر، فإن الضيف إذا أكل من طعام رب المنزل اطمأن إليه وأنس به، فلما علموا منه ذلك {قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم} [الذاريات: 28] وهذا الغلام إسحق لا إسماعيل، لان امرأته عجبت من ذلك فقالت: عجوز عقيم لا يولد لمثلى، فأنى لي بالولد ؟ وأما إسماعيل فإنه من سريته هاجر وكان بكره وأول ولده. وقد بين سبحانه هذا في سورة هود في قوله تعالى: {فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحق يعقوب}[هود: 71] وهذه هي القصة نفسها.

وقوله تعالى: {فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم }[الذاريات: 29] فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها، إذ بادرت إلى الندبة فصكت الوجه عند هذا الاختبار.

وقوله {عجوز عقيم }[الذاريات: 29] فيه حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال واقتصارها من الكلام على ما يتأدى به الحاجة، فإنها حذفت المبتدأ ولم تقل أنا عجوز عقيم، واقتصرت على ذكر السبب الدال على عدم الولادة لم تذكر غيره، وأما في سورة هود، فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم وصرحت بالعجب.

وقوله تعالى: {قالوا كذلك قال ربك}متضمن لإثبات صفة القول له.

إثبات صفة الحكمة والعلم لله عز وجل:

وقوله: {إِنّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ} [الذاريات: 30]، متضمن لإثبات صفة الحكمة والعلم اللذين هما مصدر الخلق والأمر، فجميع ما خلقه سبحانه صادر عن علمه وحكمته، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته.والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال، فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر، وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام.

(يتبع...)

@ والحكمة تتضمن كمال الإرادة والعدل والرحمة والإحسان والجود والبر، ووضع الأشياء في مواضعها في أحسن وجوهها ويتضمن إرسال وإثبات الثواب والعقاب.كل هذا العلم من اسمه الحكيم كما هي طريقه القرآن في الاستدلال على هذه المطالب العظيمة بصفة الحكمة، والإنكار على من يزعم أنه خلق الخلق عبثا وسدى وباطلا، فحينئذ صفة حكمته تتضمن الشرع والقدر والثواب والعقاب، ولهذا كان أصح القولين أن المعاد يعلم بالعقل، وأن السمع ورد بتفصيل ما يدل العقل على إثباته.

ومن تأمل أدلة المعاد في القرآن وجدها دالة على ذلك، وأنه سبحانه يضرب لهم الأمثال المعقولة التي تدل على إمكان المعاد تارة ووقوعه أخرى، فيذكر أدلة القدرة الدالة على إمكان المعاد وأدلة الحكمة المستلزمة لوقوعه.

ومن تأمل أدلة المعاد في القرآن وجدها كذلك مغنية بحمد الله عن غيرها، كافية شافية موصلة إلى المطلوب بسرعة، متضمنة للجواب عن الشبه العارضه لكثير من الناس.

وإن ساعد التوفيق كتبت في ذلك سفرا كبيرا، لما رأيت في الأدلة التي أرشد إليها القرآن من الشفاء والهدى وسرعة الإنصاف، وحسن البيان، والتنبيه على مواضع الشبه والجواب عنها بما ينثلج له الصدر، ويكثر معه اليقين، بخلاف غيره من الأدلة، فإنها على العكس من ذلك. وليس هذه موضع التفصيل.

والمقصود أن صدور الخلق والأمر عن علم الرب وحكمته. واختصت هذه القصة بذكر هذين الاسمين لاقتضائهما لتعجب النفوس من تولد مولود بين أبوين لا يولد لمثلهما عادة، وخفاء العلم بسبب هذا الإيلاد، و كون الحكمة اقتضت جريان هذه الولادة على غير العادة المعرفة. فذكر في الآية اسم العلم والحكمة المتضمن لعلمه سبحانه بسبب هذا الخلق وغايته وحكمته في وضعه موضعه من غير إخلال بموجب الحكمة.

ثم ذكر سبحانه وتعالى قصة الملائكة في إرسالهم لهلاك قوم لوط، وإرسال الحجارة المسومة عليهم، وفى هذا ما يتضمن تصديق رسله وإهلاك المكذبين لهم، والدلالة على المعاد والثواب والعقاب لوقوعه عيانا في هذا العالم، وهذا من أعظم الأدلة الدالة على صدق رسله لصحة ما أخبروا به عن ربهم.

الفرق بين الإسلام والإيمان:

ثم قال تعالى: {فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين} [الذاريات: 35-36] ففرق بين الإسلام والإيمان هنا لسر اقتضاء الكلام.

فإن الإخراج هنا عبارة عن النجاة، فهو إخراج نجاة من العذاب، ولا ريب أن هذا مختص بالمؤمنين المتبعين للرسل ظاهرا وباطنا.

وقوله تعالى: {فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين} [الذاريات: 36]، ما كان الموجودون من المخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم لأن امرأة لوط كانت من أهل هذا البيت وهى مسلمة في الظاهر، فكانت في البيت الموجودين لا في القوم الناجين، وقد أخبر سبحانه عن خيانة امرأة لوط، وخيانتها أنها كانت تدل قومها على أضيافه وقلبها معهم، وليس خيانة فاحشة، فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهرا، وليست من المؤمنين الناجين.ومن

وضع دلالة القرآن وألفاظه مواضعها، تبين له من أسراره وحكمه ما يبهر العقول، ويعلم أنه تنزيل من حكيم حميد.

وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور وهو: إن الإسلام أعم من الإيمان فكيف استثناء الأعم من الأخص، وقاعدة الاستثناء تقتضي العكس ؟ وتبين أن المسلمين المستثنين مما وقع عليه فعل الوجود، والمؤمنين غير مستثنين منه، بل هم المخرجون الناجون.

المؤمن بالآخرة هو الذي ينتفع بالآيات والمواعظ:

وقوله تعالى: {وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم} [الذاريات: 37] فيه دليل على أن آيات الله سبحانه وعجائبه التي فعلها في هذا العالم وأبقى آثارها دالة عليه وعلى صدق رسله، إنما ينتفع بها من يؤمن بالمعاد، ويخشى عذاب الله تعالى.

كما قال الله تعالى في موضع آخر {إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة} [هود: 103].

وقال تعالى: {سيذكر من يخشى} [الأعلى: 10] فإن من لا يؤمن بالآخرة غايته أن يقول: هؤلاء قوم أصابهم الدهر كما أصاب غيرهم، ولا زال الدهر فيه الشقاوة والسعادة.

وأما من آمن بالآخرة وأشفق منها فهو الذي ينتفع بالآيات والمواعظ.

والمقصود بهذا إنما هو التنبيه والتمثيل على تفاوت الأفهام في معرفة القرآن واستنباط أسراره وآثار كنوزه ويعتبر بهذا غيره، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

فصل

الرفيق والطريق

والمقصود أن القلب لما تحول لهذا السفر طلب رفيقا يأنس به في السفر، فلا يجد إلا معارضا مناقضا، أو ملائما بالتأنيب مصرحا، أو فارغا من هذه الحركة معرضا، وليت كل ما ترى هكذا، فلقد أحسن إليك من خلاك وطريقك ولم يطرح شره عليك، كما قال القائل:

إنا لفي زمن ترك القبيح به		من أكثر الناس إحسان وإجمال

فإذا كان هذا المعروف من الناس. فالمطلوب في هذا الزمان المعاونة على هذا السفر بالإعراض وترك اللائمة والاعتراض، إلا ما عسى أن يقع نادرا فيكون غنيمة باردة لا قيمة لها.

ولا ينبغي أن لا يتوقف العبد في سيره على هذه الغنيمة بل يسير ولو وحيدا غريبا، فانفراد العبد في طريق طلبه دليل على صدق المحبة.

أهمية الرسالة التي بين يديك:

ومن نظر في هذه الكلمات التي تضمنتها هذه الورقات، علم أنها من أهم ما يحصل به التعاون على البر و التقوى، وسفر الهجرة إلى الله ورسوله، وهو الذي قصد سطرها بكتابتها وجعلها هديته المعجلة السابقة إلى أصحابه ورفقائه في طلب العلم.

وشهد الله وكفى بالله شهيدا، ولو توافى أحدا منهم لقابلها بالقبول ولبادر إلى تفهمها وعدها من أفض ما أهدى صاحب إلى صاحبه، فإن غير هذا من جريانات الركب الخيرية، وإن تطلعت النفوس إليها ففائدتها قليلة وهى في غاية الرخص لكثرة جالبها، وإنما الهدية النافعة كلمة يهديها الرجل إلى أخيه المسلم.

نصائح للمهاجر إلى الله:

ومن أراد السفر فعليه بمرافقة الأموات الذين هم في العالم أحياء، فإنه يبلغ بمرافقتهم إلى مقصده، وليحذر من مرافقة الأحياء الذين هم في الناس أموات، فإنهم يقطعون عليه طريقه، فليس لهذا السالك أنفع من تلك المرافقة،وأوفق له من هذه المفارقة، فقد قال بعض السلف:((شتان بين أقوام موتى تحيا القلوب بذكرهم، وبين أقوام أحياء تموت القلوب بمخالطتهم)).

فما على العبد أضر من عشائره وأبناء جنسه، فنظره قاصر وهمته واقفة عند التشبه بهم، ومباهاتهم والسلوك أين سلكوا، حتى لو دخلوا جحر ضب لأحب أن يدخله معهم.

فمتى صرف همته عن صحبتهم إلى صحبة من أشباحهم مفقودة، ومحاسنهم وآثارهم الجميلة في العالم موجودة، استحدث بذلك همة أخرى وعملا آخر، وصار بين الناس غريبا، وإن كان فيهم مشهورا ونسيبا، ولكنه غريب محبوب يرى ما الناس فيه ولا يرون ما هو فيه، يقيم لهم المعاذير ما استطاع، ويحضهم بجهده وطاقته، سائرا فيهم بعينين: عين ناظرة إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. بها يأمرهم وينهاهم ويواليهم ويعاديهم، ويؤدى لهم الحقوق ويستوفيها عليهم. وعين ناظرة إلى القضاء والقدر، بها يرحمهم ويدعو لهم ويلتمس وجوه المعاذير فيما لا يخل بأمر ولا يعود بنقض شرع، وقد وسعهم بسلطته ورحمته ولينه ومعذرته، وقفا عند قوله تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: 199]، تدبرا لما تضمنته هذه الآية من حسن المعاشرة مع الخلق وأداء حق الله فيهم والسلامة من شرهم. فلو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكفتهم وشفتهم فإن العفو ما عفى من أخلاقهم وسمحت به طبائعهم، ووسعهم بذله من أموالهم وأخلاقهم.

فهذا ما منهم إليه، وأما ما يكون منه إليهم فأمرهم بالمعروف، وهو ما تشهد به العقول وتعرف حسنه، وهو ما أمر الله به. وأما ما يتقى به أذى جاهلهم، فالإعراض عنه وترك الانتقام لنفسه والانتصار لها.

فأي كمال للعبد وراء هذا ؟ و أى معاشرة وسياسة لهذا العالم أحسن من هذه المعاشرة والسياسة ؟ فلو فكر الرجل في كل شر يلحقه من العالم. أعنى الشر الحقيقي الذي لا يوجب له الرفعة والزلفى من الله وجد سببه الإخلال بهذه الثلاث أو بعضها، وإلا فمع القيام بها، فكل ما يحصل له من الناس فهو خير له وإن شر في الظاهر، فإنه يتولد من الأمر بالمعروف ولا يتولد منه إلا خيرا، وإن ورد في حالة شر وأذى.

كما قال تعالى: {إِنّ الّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مّنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لّكُمْ} [النور: 11].

وقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: {فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكّلْ عَلَى الله} [آل عمران: 159]، وقد تضمنت هذه الكلمات مراعاة حق الله وحق الخلق، فإنهم إما يسيئوا في حق الله وفى حق رسوله فإن أساءوا في حقك، فقابل ذلك بعفوك عنهم، وإن أساءوا في حقي فاسألني أغفر لهم وأستجلب قلوبهم، وأستخرج ما عندهم من الرأي بمشاورتهم، فإن ذلك أحرى في استجلال طاعتهم وبذل النصيحة، فإذا عزمت فلا استشارة بعد ذلك، بل توكل وامضِ لما عزمت عليه من أمرك فإن الله يحب المتوكلين.

وكان خلقه القرآن:

فهذا وأمثاله من الأخلاق التي أدب الله بها رسوله، وقال تعالى فيه: {وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُق عَظِيم} [القلم: 4]، قالت عائشة رضى الله عنها: ((كان خلقه القرآن)) وهذا لا يتم إلا بثلاثة أشياء.

أحدها: أن يكون العود طيبا، فأما إن كانت الطبيعة جافية غليظة يابسة عسر عليها مزاولة ذلك علما وإرادة وعملا، بخلاف الطبيعة المنقادة اللينة السلسة القياد، فإنها مستعدة إنما تريد الحرث والبذر.

الثاني: أن تكون النفس قوية غالبة قاهرة لدواعي البطالة والغى والهوى، فإن هذه الأمور تنافى الكمال، فإن لم تقو النفس على قهرها وإلا لم تزل مغلوبة مقهورة.

الثالث: علم شاف بحقائق الأشياء وتنزيلها منازلها يميز بين الشحم والورم، والزجاجة والجوهرة.

فإذا اجتمعت فيه هذه الخصال الثلاثة، ساعد التوفيق فهو القسم الذي سبقت لهم من ربهم الحسنى، وتمت لهم العناية.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا أبدا إلى يوم الدين. والحمد لله رب العالمين.